صفحة من تاريخ سورية

تنازع الاسقفية في انطاكية (٣٦٢–٣٩٢)

بقلم الاب غوستاف نيرون استاذ الفلسفة في كلية القديس يوسف

١

ان سورية كما لا يخفى هي من البلدان الاولى التي استولت عليها الديانة المسيحية . فان اعمال الرسل تنبئنا ان في عاصمتها انطاكية بدأ استعمال كلمة «مسيحي» . لذا كان التبشير فيها ، منذ اول عهده ، سريعاً جداً . ففي اوائل الجيل الرابع ، بينما كان الغرب لم يزل معظمه وثنياً، ولا يعدّ في كثير من اقطاره الّا بعض مراكز متفرقة للمسيحيين ، اذا بسورية قد توطد فيها الدين الجديد مؤلفاً في جميع انحائها جماعات متلازّة من المؤمنين .

اما ارتداد قسطنطين فلم يكن الا ليزيد في تعزيز موقفها . فمنذ ذاك العهد ، لا يتميز تاريخ كنيسة سورية عن تاريخ البلاد الذي كانت الحوادث الدينية لحمته . ولكن لا نتوهمنّ اننا لا نجد في هذا التاريخ موضوعاً نسرده سوى انتصارات الايمان والروح المسيحي ؛ فان الديانة المسيحية ، بانتصاراتها نفسها ، وبامتياز موقفها ، كانت عرضة لاخطار جديدة اعظم ، على نوع ما ، من اخطار الاضطهادات الوثنية . فان الامبراطور ، وقد غدا من ابناء الكنيسة ، استعمل في وسطها نفوذاً كبيراً خولته اياه مجاري الامور . ومن ثم كان يُخشى ان يدفع الطمع بعض الاكليريكيين المفسدين للتألب حوله ، سعياً وراء تنفيذ اميال غير اميال الانجيل .

ذلك ما جرى خصوصاً اثناء المنازعات الاريوسيَّة التي ملأت القسم الاكبر من الجيل الرابع . فان البدعة الاريوسيَّة ، التي طرحت الوهية المسيح على بساط النقد ، لم تنل نجاحاً بين الشعب المسيحي : امرٌ عرفهُ الجميع عندما حرم المجمع النيقاوي بدعة آريوس . لان تحديدات هذا المجمع قُبلت في جميع

الاقطار بخضوع وسرور تأمين . غير انهُ اذا كان المؤمنون الاتقياء قد نبـذوا هـذا الضلال المقوّض لاركان الايمان ، فان فئة من الاحبار ، ورجـال الطمع والسياسة ، ارادوا لاسباب مختلفة ان يترتّب مصيرهم على مصير آريوس. وكانوا لذلك يجتهدون بكل ما لديهم ليتيحوا له الاخـذ بالثأر ، مما اثار اضطرابات مستطيلة ، وانقسامات شديدة، واحياناً اضطهادات لا تقل قساوة عن اضطهادات الملوك الوثنيين انفسهم . بيد انهُ لا توجد كنيسة تألمت من هذه الحالة الموجعة اكثر من كنيسة انطاكية.

* * *

في سنة ٣٢٥ ، ايام التئام مجمع نيقية ، كان يرئس كنيسة عاصمة سوريَة رجل سامي القدر، حازم ، صارم العزيمة ، وهو القديس افسطاتيوس ، احد الذين بادروا قبل انعقاد المجمع الى حرم المبتدعين . ولمّا انفض المجمع وحاول هؤلاء اعادة الكرة خلسةً ، كان من اول العاملين على كشف دسائسهم . واـذا لم يلبث ان نال ما سبّب له سهره المتواصل من المشاكل.

ففي سنة ٣٣١ التأم في انطاكية مجمع قبض على زمامه الاحبار الاريوسيون فحط افسطاتيوس من كرسيه مستنداً الى وشايات افترائية ؛ ونال من قسطنطين تثبيت الحكم بدعوى انه متمرّد ، فنفي الى تراقية حيث لم يلبث ان مات : ضربة قوية جرّت على كنيسة انطاكية ، التي كانت اذ ذاك على ازدهار واتحاد عظيمين ، عواقبَ مؤلمة بقيت زهاء قرن.

وذلك اولاً ان الموقف الجديد جعل كاثوليك انطاكية امام مشكل كبير من مشاكل الضمير . ما العمل ؟ ايرضون بحط افسطاتيوس الجائر ويعترفون بالاساقفة الذين جُعلوا خلفاء لهُ، وهم رجال ذوو ايمان مريب ، بما ان علاقاتهم كانها كانت مـع الاريوسيين ، او قلما يكون مـع النصف الآريوسيين ؟ ام ينفصلون عنهم ويؤلفون طائفة على حدة ؟

موقفٌ حرج فيه الاكليريكيون والمؤمنون ، حتى الذين ساموا منهم تقوى وتمسكاً بايمان نيقية لم ينهجوا منهجاً واحداً . فان فئة ذات شأن قد انفصلت عن الطائفة القانونية ، التي فقدت راعيها الشرعي . ولئلا تشترك مع آثام عليهم

شبهة المرطقة ، كانت تجتمع على انفرادٍ في مساكن خصوصية . اما شعارها فقد كان اسم افسطاتيوس ، لذلك دُعي ذووها بالافسطاتيين .

وآخرون ممن كان ايمانهم نقيًا ايضاً لم يفقهوا واجبهم على هذه الصورة ؛ فان عزل افسطاتيوس كان غير عادل ، الّا ان المحكوم عليه نفسه كان يظهر انهُ راضٍ بذلك حبًا بالسلام .

واما تعاليم نيقية فان الذين اسقطوا الاسقف القديس كان انتحالهم لها موضع الريب . بيد انهم كانوا قد وقّعوا عليها وكانوا يعلمونها . ولم يكن اذ ذاك في المملكة كلها وفي الكنيسة جمعاء قانون ايمان غير الذي تعلمه نيقية . اذًا بما ان المعتقد القويم لم يُمَسّ أما كان الاولى ان يضحّى بكل شيء في سبيل وحدة الكنيسة ، ويحفظ الاتّحاد مع الجماعة الشرعية ؟ وذلك لكي لا تذهب هي ايضاً فريسة المرطقة . فهؤلاء الكاثوليك الاكثر تساهلًا قد اعترفوا اذًا بالاساقفة الذين تتابعوا على كرسي انطاكية بعد سنة ٣٣١

بالحقيقة ان الطائفة الشرعية ، التي كانت لم تزل مستولية على الكنائس بحيث امكنها ان تقيم فيها جهارًا الاحتفالات الطقسية ، كانت اكثر عددًا من الاخرى . لكنها كانت اكثر اختلاطًا . فبإزاء الكاثوليكيين الذين لا يؤخذون بلائم ، كنت ترى جمًا من الآريوسيين بين متكتمين ومتظاهرين ، ونفوساً متردّدة تتلاعب بها رياح المذاهب .

* * *

. ففي عهد الامبراطور قسطنتيوس بن قسطنطين الكبير ، استأثر الآريوسيون بجميع نعم ذوي السلطان . والاسقف لاونتيوس ، الذي بقي في كرسيه من سنة ٣٤٤ الى سنة ٣٥٨ ، كان بلا ريبٍ اكثر مناصرة لهم منه للكاثوليكيين الحقيقيين . غير ان هؤلاء كان في مقدمتهم رجال حزم وعزم ، فحافظوا بثبات على ايمانهم الذي قلما وجد نصرةً في اسقفهم . فهذا الاختلاف الداخلي في الافكار ، الذي كان يتزايد يوماً فيوماً ، قد جرّ احياناً الى الخارج مشاكل غريبة . ففي تلاوة الفرض في الكاتدرائية ، كان الكاثوليكيون يجاهرون بايمانهم بتساوي الثالوث الاقدس ، خاتمين كل زبور بالعبارة التي لا تزال نستعملها

وهي « المجد للآب والابن والروح القدس.» واما الاريوسيون فتلميحاً الى عدم مساواة الابن كانوا يقولون «المجد للآب بالابن في الروح القدس» . فالاسقف الذي كان يريد ان يتجنب كل سبب معثرة رأى ذاته واقعاً في حيص بيص . ومما يخبر عنهُ انهُ كان يبتدئ بقول « المجد للآب» بصوت جهوري جليّ. ثم يـهمل او يميت صوته هنيهة ؛ ولا يعوده صوته الا عند الخاتمة « الى دهر الداهرين.»

فوالحالة هذه كان يرى الاقدام على تغيير الاساقفة سبباً لاثارة منازعات جديدة في كنيسة انطاكية . والاسقف الشيخ لاونتيوس قد شعر بذلك. وكان يقول وهو يمرّ يده بين شعره الابيض « متى ذاب هذا الثلج صار وحلٌ في شوارع انطاكية » . وقد مات سنة ٣٥٨ وخلفه افضوكيوس ، وهو آريوسي مجاهر بآريوسيّته . فاضطرب من ذلك الكاثوليكيون ؛ غير انهُ ما بتم ان مضى عنهم لانه في بدء سنة ٣٦٠ نقل الى القسطنطينيّة ، فوجب من ثمَّ ان يُعمد الى انتخاب اسقفيّ جديد كان لابد ان يفضي الى قلب الحالة الحاضرة ظهرًا لبطن.

من ذا يكون الاسقف الجديد ؟ والى اي فريق سيميل ؟ هذا ما كان الجميع يتساءلون عنهُ. وان الظروف كانت تبين غير مناصرة للكاثوليكيين . فان الآريوسيين كانوا منذ قليل قد فازوا في مجمع ريميني غير الشرعي، والقديس اثناسيوس مع المحامين الباسلين عن ايمان نيقية كانوا في الجلاء . والاحبار الذين يحفّون بالامبراطور قسطنتيوس ، والقابضون فعلًا على دفّة الكنيسة الشرقية كانوا رجال سياسة واسمي الضمائر ، كلهم مناصرون للهرطقة مناصرة متفاوتة. ففي هذه الاحوال يا ترى هل يكون الانتخاب حرًّا وما تكون نتيجته ؟

ان الاساقفة تهافتوا بكثرة على انطاكية ليكون لهم يد في الانتخاب . فلم يمضِ الّا زمن يسير حتى طار الخبر ان المنتخب اكليريكي قليل الشهرة ، وديع ، ساذج ، محب للسلام ، عدوّ للقلاقل والبلابل ، جعله حبه الكنيسة والعزلة خارجاً عن الاحزاب . وكان لهُ في كل منها على اختلافها اصدقاء كثيرون بحيث ان في كلا الفريقين ، فريق الكاثوليكيين الأمناء وفريق الاريوسيين ، من توسّم الخير في انتخابه.

لقد انتظر القوم بفروغ صبر خطاب الجلوس اذ منهُ يعرف الى اي فريق

يميل المنتخب الجديد . وهنا يجب الاقرار انهُ حضر الحفلة بموكب التقى في القلوب بعض الخشية . فكان يحفّ بهِ جاورجيوس الكبادوكي الدخيل ، الذي اجبر الشرطةُ الامبراطورية اهالي الاسكندرية بقبوله عوضاً عن القديس اثناسيوس . ثم اكاكيوس قيصارية ، حبرٌ مهتم بالسياسة قبل كل شيء قليل الاكتراث للديانة . بيد ان علاقاته كانت تميل بهِ الى جانب الهرطقة .

* * *

خطب الاساقفة الثلاثة تباعاً . فجاورجيوس الاسكندري تكلم طبقاً لما كان ينتظر منهُ اي بمعنى آريوسي محض . اما اكاكيوس فقد كان اكثر تحفظاً لكنه لم يُرضِ الكاثوليكيين الحقيقيين . واما الاسقف الجديد فما عساه ان يقول ؟ انهُ بدأ بشكل سكون يحرّض على الاتحاد والسلام . ثم جاهر بايمانه تاركاً العبارات التي من شأنها اضرام نار المنازعات نظير « المساوي في الجوهر » فاذا باعترافه لم يدع مجالاً الشك في صحة معتقده الكاثوليكي الصميم .

فرقص الكاثوليكيون طرباً . امّا الآريوسيون فقد تهيأوا مذ ذاك للاخذ بالثأر . وكان ذلك غير بعيد . فبعد مضي شهر اقيمت الشكاية عليه بانه تجاوز الحدّ في بعض اعمال ادارية ، فحُطَّ عن كرسيه واقيم بدلاً منهُ هرطوقي متظاهر اسمه افزوئيوس ، احد رفاق آريوس .

هكذا كانت امور انطاكية تزداد تعقيداً يوماً فيوماً . فاذا ضربنا صفحاً عن فئتين اقل اهمية من الأخر — نتركها تفادياً من الالتباس — وجدنا الطائفة المسيحية منقسمة آنئذٍ الى ثلاثة اقسام : الفئة الاريوسية ، ويرئسها الاسقف افزوئيوس . فهذه كانت مستأثرة بنعم اولي السلطان ، مستولية على الكاتدرائية التي شادها قسطنطين . ثم فئة ملاتيوس التي كانت خاضعة للاسقف المنفي ومستولية على الكنيسة القديمة . اخيراً الفئة المنتمية لافسطاتيوس والحافظة الامانة لاول ضحية من ضحايا الآريوسيين وهذه كانت تقيم اجتماعاتها في بيوت خصوصية ، وكان على رأسها الكاهن بولينوس .

ولو قيل ما الفرق بين هاتين الفئتين الاخيرتين اجبنا : اشياء بالحقيقة لا يعتدّ بها . فاذا نظرنا الى المعتقد ، فقد كانوا كما يظهر متمسكين على السواء بالايمان

الذي علّمه المجمع النيقاوي من تساوي الثالوث الاقدس . فجلُّ ما يميّز احداهما عن الاخرى بعض اختلافات في التعابير لا يعتدّ بها . فالافسطاثيون كانوا يتحرّون اسلوب تعبير الغربيين خلافاً لتبّاع ملاتيوس الذين بقوا محافظين على التعابير الشرقية . امّا حقيقة ما يميّز الواحدة عن الاخرى فهي نزعات واميال شخصية .

* * *

منذ ثلاثين سنة كان الافسطاثيون قد تعوّدوا ان يعيشوا على حدة وان يعتبروا المجاورين لهم كمواطنين للهرطقة . فانفرادهم في الشرق — حيث كان دستور التساهل قد أُقيم تقريباً في كل اقطاره — جعلهم يؤثرون الأعتصام برومية والاسكندرية ، ويظهرون بمظهر «المتلتنين» (latinisants) خلافاً لتباع ملاتيوس الذين لم يقطعوا علاقاتهم مع الاساقفة الشرقيين ، الذين كان كثير منهم اعداء للقديس اثناسيوس ، ومقاومين سرًّا لتعاليم نيقية .

ففي الموقف الجديد كان لا بد من امر ، كيفما تقلبت الاحوال . وهو ان تتحد الفئتان اللتان لم يفصلها سبب صوابي . فانهما كلتيهما حُرمتا انعامات الحكومة ، وتألمتا من نفس العلة . فكان من ثم كل شيء يدعوهما لمدّ يد المصافحة . ناهيك عن ان خير وسيلة لقهر هرطقة عضدتها السلطة بجميع ما لديها من القوة كانت بلا جدال جمع الكاثوليكيين حزمة واحدة لا تقوى عليها الايدي . وهو امر سهل للغاية اذ ان اتباع ملاتيوس كان لهم وحدهم اسقف . ولكن واحسرتاه بينا كلٌّ يهتف بلسان حاله : الاتحاد ، الاتحاد ، اذا بداء الانقسام قد استفحل .

بيد ان سلطات عالية حاولت التوسّط لاجل السلام ، فانه بعد ان نفذ سهم القضاء بقسطنتيوس ، الذي اتاح موته للكاثوليكيين قليلاً من الراحة ، عقدت مجامع في كثير من الامكنة لمعالجة ادواء الكنائس التي عاثت بها الاريوسية . فان القديس اثناسيوس ترأس احداها في الاسكندرية . وذلك اثر عودته اليها عودة ظافر .

فهذا الرجل العجيب كان معروفاً بغيرته الشمّاء في الدفاع عن الحقيقة تجاه اغتصاب المضطهدين ، وضعف كثيرين من زملائه . امّا الآن وقد عادت

السكينة فاستتبت ، فانهُ اظهر لاعدائه بالامس ملاطفةً لا تقلّ عن الشجاعة التي ابداها وقت الكفاح . فقد صرف كل همته وذكائه لاجتناب المنازعات الفارغة ، وللجمع بين آنام اتحدوا افكارًا الّا انهم اختلفوا اقوالًا . ولما كان مجمع الاسكندرية لا يسعه اهمال شؤون انطاكية ، كتب كتاباً للافسطاتيين يحرّضهم فيهِ على الاتفاق مع كل الذين كانوا حقيقة مسلّمين بتعاليم نيقية . الّا ان تعابيرهم عنها تختلف بعض الاختلاف عن التي استعملت الى ذلك العهد.

غير ان المؤمنين الموجَّه الكتابُ اليهم لم يكونوا ليفقهوا معنى تلك النصائح المشيرة بالاتحاد . فقد كانوا منذ ثلاثين سنة قائمين في معتقدهم القويم ، ملازمين لهُ ، غُيُرًا عليهِ ، محتملين لاجله الوحدة والاضطهاد احرى من مجاراة الضلال باقل شيء . حالةٌ انمت فيهم قوة الحزم والتجرد وحرارة العاطفة الدينيَّة . الّا انها لم تعدّهم لهذه السعة والمرونة في الافكار فيرضوا بالتساهلات حتى اكثرها جوازًا تجاه الضمير . هذا فضلًا عن ان حادثاً خطيرًا كان مزمعاً ان يجعل كل تقرّب مستحيلًا قبل زمن طويل.

ان الكتاب الوجه الى الانطاكيين عُهد بهِ الى اوسابيوس مطران ڤرشيل الذي كان في ايام قسطنطين قد نُفي الى مصر وكان اذ ذاك عائدًا الى ايطالية بعد حضوره المجمع الاسكندري . فهذا الرجل القديس الذي كانت حكمته تباري غيرته كان في وسعه عند وصوله الى انطاكية ان يستعمل من نفوذه ما يكفي لاعادة الاتحاد. لو لم تكن الحالة قبل وصوله قد انقلبت انقلاباً خطيرًا.

* * *

بين الغربيين المنفيين الى الشرق لاجل قانون نيقية ، كان لوسيفيروس اسقف كالياري في سردينيا. وهو رجل ذو غيرة فريدة على الايمان الّا ان اخلاقه لم تكن تشبه اخلاق ابطال الايمان الحقيقيين كالقديس اثناسيوس واوسابيوس:

فهذا قد ابدى جرأة فائقة في حين ان الكل طأطأوا الرأس امام قسطنتيوس بيد ان ثبات عزيته لم ترافقه اصابة الحكم ، فان لهجة تقريعاته الحديثة الامبراطور تدل على اندفاع وتهوّر. ثم لما دعي الى المجمع الاسكندري رفض الدعوة واسرع الى انطاكية حيث كان اشتباك الامور يجتذبه . فان رجالًا

من هـذه الجبلة قلما لا يندفعون لاول وهلة وراء ما لا يسوغ عمله . ولكن لنتصفنّ لوسيفيروس مقرّين بانه عند وصوله الى انطاكية اجتهد في ان يخفف من تعصب الافسطاتيين. غير انهُ أتى أخلق مسماه فعل ما كان يجب تجنبه قبل كل شيء.. اي صيَّر الانقسام غير قابل الالتحام ، وذلك بسيامته بولينوس اسقفاً ولنلاحظنّ حالًا ان هذه السيامة كانت مناقضة لقوانين الكنيسة من وجهين : اولًا لان انطاكية كان لها اسقف وهو ملاتيوس الذي يصعب جدًا ان لا يعتبر شرعيًا. ثانياً لان لوسيفيرس هو الاسقف الوحيد الذي قام بحفلة السيامة على حين انهُ كان يقتضي اثنان آخران معه.

ولما وصل اوسابيوس كان الشر قد وقع ، فحزن جدًا ولم يُرد ان يعترف ببولينوس ولا بملاتيوس . ومن ثم انقلب راجعاً الى ايطالية فعملُ لوسيفيرس العاري من الفطنة بقي مدة طويلة شديد الوطــأة على مصير كنيسة انطاكية ، وزد على ذلك غلطة اخرى ارتكبها هذه المرة الحزبُ الآخر فزاد الموقف حراجة.

لقد سبقنا فاشرنا الى روح المسالمة في القديس ملاتيوس . وإن للمؤرخ بلا ريب تعزيةً كبرى في رؤيته هذه الصورة الوديعة ، بارزة في وسط يؤلّفه احبار مواطنون للآريوسية ، يسود فيهم رجال الاحزاب والدسائس . على انهُ قــد اضطرّ ان يُظهر بعد قليل ، ايام اضطهاد ڤالنتا، ان الوداعة لا تنفي منهُ رباطة الجأش في مناهضة الكفر. ولكن من نظر الى العلاقات التي ارتبط بها في بدء حياته صعب عليه ان لا يرى فيه الافراط في محبة التآلف . فانهُ كثيرًا مــا رأى في اصحاب هيئات ان يشابهوه ما كان يراه في نفسه من استقامة النية . والحال انهُ يتأتى احيانــاً ان الافراط في مجاراة من لا يستحق المساهلة يحمّل صاحبه تبعات بل ذنوباً كبيرة تجاه الاكثر جدارة، وهذا ما وقع آنئذٍ بملاتيوس.

في سنة ٣٦٣ اي بعد سيامة بولينوس بسنة اضطر القديس اثناسيوس ان يذهب الى انطاكية . فلا ريب ان ظروف انتخاب ملاتيوس لم تكن لتنيل هذا خطورة في عيني القــديس . ناهيك ان تقرّب اسقف الاسكندرية من الشرقيين الذين قاموا بهذا الانتخاب كان ليحتسب مصافحة رجــال اصلوه نار العداء مدة ثلاثين سنة وطردوه من كرسيه ووشوا به عنــد القياصرة ونالوا

الحكم عليه بالنفي ثلاث مرات. غير ان اثناسيوس كانت نفسه اكبر من ان تدع مجالًا لاقلّ عاطفة حقد · وان خير الكنيسة في ذلك الوقت كان يقتضي نسيان المخاصمات القديمة . وعليه فان القديس صرّح لملاتيوس برغبته في موالفته.

اما كيف لم يقبل سؤال كهذا للحال فذلك امر لم تصلنا تفاصيله وافية . بيد انهُ يبين واضحاً ان الذنب في ذلك ليس ذنب الاسقف نفسه ، بل ذنب محيطه الملتبس الذي اتخذه ، عنيتُ تلك النفوس الصغيرة التي لم تكن لتدرك شهامة اثناسيوس الكبيرة . ولكن لما أنس القديس في جوانبهم روح الماطلة ، بادر الى الاشتراك مع بولينوس فافضى ذلك الى عواقب لا تُحصى.

منذ بدء المنازعات الاريوسية حملت ظروف الحال رومية على مطابقة وقفتها في الشرق لوقفة الاسكندرية، التي كانت تبدو بفضل اثناسيوس كحصن الايمان الحقيقي . اذاً جعلُ بولينوس تحت حماية مصر كان ضامناً لـهُ بالوقت نفسه معاضدة الغرب . وعليه فان الاختلاف الانطاكي الـذي كان لم يزل موضعياً اخذ مذ ذاك يشغل الكنيسة جماء ، ويثير في كل الانحاء المشاكل والخصومات . وفيما ان شديد استئناف الاضطهاد الاريوسي في زمن فالنتا يتقاضى من الكاثوليكيين اشد اتحاد، كانت احوال انطاكية التاعسة موشكة ان ترمي الخلاف بين الكراسي الاسقفية المختلفة ، وتلقي الخصام بين اشخاص من اجلّ الناس قدراً وقداسة . فترى ، من جهةٍ ، الشرقَ كلـه يعرف ملاتيوس اسقفاً شرعياً لانطاكية . ومن جهة اخرى ، الاسكندرية ورومية مائلتين بالاحرى الى بولينوس . ولذلك سنجد دوماً ، بين المساعي الصادقة في سبيل الاتفاق ، سوء تفاهم يتكرّر ، ومصدره التباس هذا الموقف.

ان التدابير العديدة التي اتخذت على التوالي لقطع شأفة الشقاق تتألف منها قصة طويلة معقدة يجد القارئ فيها ما يؤلمه، واكثر من ذلك ما يفيده موعظة. ولما كنا لا نستطيع ان نسرد هنا كل التفاصيل آثرنا ان نتوقف عند الحوادث الهامة.

* * *

فلننتقل اذًا الى ما بعد اثنتي عشرة سنة اي الى سنة ٣٧٥. فقبلُ بسنتين كان اثناسيوس قد مات ، واقيم خلفاً لهُ على كرسي الاسكندرية ، اخوه بطرس . ولا جدال في ان اعظم رجل في الكنيسة اذ ذاك كان القديس باسيليوس الذي نُصّب منذ ثلاث سنوات اسقفاً على قيصارية في كبادوكيا.

ان حالة شطري المملكة الرومانية كانت في ذلك العهد مختلفة كل الاختلاف . ففي سنة ٣٦٤ تبوأ العرش فالنتينيانوس القائد المسيحي ، فاشرك معهُ اخاه فالنتا ليملك على الشرق . ففالنتينيانوس لم يرد ان يتدخل في المسائل اللاهوتية ، بل ترك للكنيسة حريتها التامة ، بحيث ان الغرب كله الذي لم تستطع الاريوسية قط ان تتأصل فيه ، غدا منذئذٍ باتحاد وسلام يسير تحت رعاية الكنيسة الرومانية على صراط الدين القويم ، خلافاً للشرق الذي كانت جميع اقطاره مواطن للاضطراب والبلبال . فان فالنتا منذ بدء تملكه عليه جد في رفع لواء الهرطقة ، فكان الاساقفة الشرعيون يُجرّون من كل الانحاء الى المنافي ، ويقام بدلًا منهم دخلاء جهلة متعصبون . ففي انطاكية اظهر حينئذٍ ملاتيوس المعروف بوداعته بأساً لا يداني في الدفاع عن الايمان . لذلك حمل المضطهدون ، عليه وعلى رعيته ، حملة شعواء ، فكان الانتماء لملاتيوس مرادفاً للامانة على الايمان الحقيقي . اما كنيسة بوليترس الصغيرة التي كانت اقل عددًا ونفوذًا بكثير فانها لم تكد تمس باذى.

على انهُ بين تلك الاضطرابات العمومية ، تلوح لنا حركة توليها أكثر تعزية واملًا . وهي ان كثيرين ممن انخدعوا بتمويهات براهين الهراطقة اخذوا ، لما كان يؤلمهم من قساوة الاضطهاد الآريوسي ، يتقربون من الديانة المستقيمة يوماً فيوماً . واذا كان لم يزل عالقاً بهم اكثر مَن وهم باطل فلّا يتبعون دون تردّد محض المعتقد النيقاوي ، فانهم مع ذلك ناهجون منهج الحقيقة ولا يألون الّا ان يُصبحوا قليلًا ليصلوا اليها . ففي هذه الحالة المشتبكة كانت سياسة القديس باسيليوس واضحة كل الوضوح ، وهي ان يجمع كل من بقي في الشرق اميناً على حقيقة نيقية او من عاد اليها : وذلك بان يبذل بصبر كل الايضاحات

اللازمة مُعرضاً عن كل ما من شأنه اثارة الخواطر . ثم ان يكمل عمل الاتحاد هذا باكتساب معاضدة رومية والغرب . لانهُ اذا ما تألب الكاثوليكيون في الشرق كله كتلة واحدة ، وبان واضحاً ان الغرب باجمعه يسير الى جنبهم ، فان المضطهدين مهما اشتدت حملتهم يجدون في هذه الوحدة التي ابست موطدة كل التوطيد قوةً لا يقوى عليها . ولكن وآأسفاه فان هذه الآمال الجميلة ستصطدم بسوء تفاهم حصل في انطاكية . فان اسقف قيصارية ارسل الى البابا داماسيوس كتبه الواحد تلوَ الآخر واصفاً له فيها آلام الشرقيين ، وطالباً الى من يتمتعون بالسلام اغاثة اخوانهم التعساء . ومن البديهي انهُ دافع في الوقت نفسه دفاعاً حاراً عن صديقه الحميم القديس ملاتيوس لان بولينوس لم يكن في نظره الّا دخيلًا . ومن ثم كان يجب ، لاعادة الاتحاد بين الكاثوليكيين ، ان يجاهر صريحاً بان ملاتيوس هو الاسقف الوحيد لانطاكية،فانه بورعه وبمقدرته الشخصية مقام ليكون نقطة اتحاد جميع الكاثوليكيين في الشرق.

غير ان باسيليوس قد طال انتظاره لاجوبة داماسيوس.ولما وردت لم يجد فيها ما تقتضي الحال من البتّ الوافي . ثم بلغه ان وفد بولينوس قد قُبل في رومية ، وان البابا قد اجرى المفاوضات معه فحزن اذ ذاك وثار ثائره.ففي احدى رسائله التي يسارُّ فيها صديقاً لهُ ، وكان قد كتبها في احدى ساعات غضبه ، تراه يتشكى من عنفوان داماسيوس وقلة فطنته باستسلامه لكل رائح وغادٍ. ويعلن اخيراً ان الغربيين لا يفهمون شيئاً من امور الشرقيين.

* * *

ومما يقضي بالاسف ان صروف الايام لم تتح لرومية ان تسرع الاسراع الواجب لمناصرة عمل القديس باسيليوس المملوء حكمة وملاءمة . بيد ان من نظر الى كل الظروف تردد كثيراً في لوم القديس داماسيوس ، لان هذا كان امامه في رومية نفسها شقاق اخر قويّ صعب المراس ايضاً قد اضعف شوكته ونقص من حريته . فضلًا عن انهُ كان بعيداً جداً عن الشرق ، لا يستطيع ان يعرف بدقة ما يجري فيه. وكان لا بد لهُ من اعتبار الاخبار المختلفة التي ترده ليرى كيف يسير . اما اخبار باسيليوس فانها كانت بلا ريب ذات قيمة

فريدة . الّا انها لم تكن الوحيدة ؛ فما خلاها ، كانت تتوارد عليه اخبار كبيرة الاعتبار لا تضرب على الوتيرة نفسها . فان بطرس الاسكندري كان قد اضطره الاضطهاد الاريوسي الى ان يهرب الى رومية ، وهناك عرضاً عن ان ينهج منهج الاعتدال الذي تحلى به اخوه اثناسيوس حمل على ملاتيوس ووشى به انهُ هرطوقي . وشايةٌ جائرة جداً . الّا ان علاقات ملاتيوس الاولى التي اشرنا اليها سابقاً كانت داعية لاثارة الشكوك عليه. بينا ان استقامة ايمان جماعة الافسطاتيين الساطعة كانت افصح مدافع عن بولينوس.

ومن سورية نفسها ، قد كانت وصلت رومية اخبار مخاصمات غريبة لم تكن لتجعل ثقة داماسيوس في حزب ملاتيوس.

في ذلك الوقت بدأت جماعات لاتينية تهاجر لتقيم في الشرق . لان الاماكن المقدسة ، التي رجعت بهمة هيلانة وقسطنطين الى حالها الاول ، كانت تجتذب اليها النفوس الورعة . ومن ثم بدأت تظهر حركة ذات شأن دامت في الاجيال الوسطى بفضل الحروب الصليبية ، وتواصلت الى ايامنا هذه بواسطة الرسالات اللاتينية في الشرق . فهذه الحركة لم تكن مبدئياً الّا لافادة الجميع اذ بها تأتلف تآلفاً ساطعاً وحدة الكنيسة . كيف لا وان اخوةً في الايمان يختلفون اصلاً وعادات ومشارب ، كانوا بذلك يتعلمون ان يعيشوا معاً في احترام تذكارات مقدسة واحدة ؛ وبعيشتهم جنباً الى جنب ، يتعارفون اكثر فيتسنى لهم من ثم ابادة سوء التفاهم المتبادل المتواتر.

بيد انهُ لضرب من السذاجة ان نتصوَّر ان مثل هذه العلاقات يمكن انشاؤها دون احداث اضطراب ما . فمنذ البداءة قام جم من الصعوبات.

ان السابق الاخص في هذه المهاجرات التقوية هو صديق خاص للبابا داماسيوس اعني القديس ايرونيموس . فهذا الرجل ذو الطبيعة النارية والطباع الحادَّة . كان يجتهد في ترويض اخلاقه . فالوحدة ، والصلاة المستطيلة ليل نهار ، والتقشفات الهائلة ، والانصباب على درس العبرانية التي كان يشعر بكراهية شديدة لها ، كل ذلك استعمله ليلطف من حدة طباعه . ومع ذلك فان الطبيعة فيه لم تكن قد ماتت بعد وكان اصبره حد محدود. امر لم يلبث

ان اختبره بانفسهم بعض الرهبان الشرقيين.

ان ايرونيموس لم يأت الى قفار سوريا الّا طلباً للسكينة والسلام.. واذا بالجادلات القائمة في النواحي المحيطة تتأثره حتى مكان خلوته . فان رهباناً ، اغفلوا حسب كلمته اللاذعة وضاعة طريقتهم ليستحيلوا الى قضاة الايمان ، حدثتهم انفسهم بالمجيء اليه للوقوف على معتقداته . ولانهُ لم يكن يستعمل في التعبير عن سر الثالوث الاقدس كل العبارات الشرقية دعوه هرطوقياً . ولقد حاولوا بكل الوسائل اضطراره الى التحزّب للاتيوس على بولينوس. فايرونيموس والحالة هذه ، لم يجد واسطة الّا الالتجاء الى الكرسي المقدس ، فكتب الى البابا داماسيوس هذه الاسطر الحامية :

« لما كنت قبل كلّ مبدأ ابناً للمسيح اتحد في الشركة مع غبطتكم ، اي مع سدة بطرس ، فانني احلم ان على هذه الصخرة بنيت الكنيسة . فكل من اكل الحمل خارج هذا البيت كان نجساً . ومن لم يكن داخل هذا الفلك هلك متى جاء الطوفان . . لا اعرف فيتاليوس ، واني ارفض ملاتيوس ، واجهل بولينوس . وكل من لا يجمع معك فهو يفرّق . اي من ليس من المسيح فهو من الدجال » .

وبعد ان تبرأ على هذه الصورة من الانحياز الى حزب ما انتقد حسب طريقته سلوك اتباع ملاتيوس . كان ايمانه في نظرهم مريباً ، فرماهم بهذه التهمة نفسها واوشك ان يدعوهم هراطقة . فيُنْهم من ثم لماذا داماسيوس ، الذي اجتهدوا بقوة ان يستميلوه لجهات متناقضة كل التناقض ، لم يجرأ ان يحكم في الامر حكماً جازماً . ومع كل فان القديس باسيليوس قد اتيح لـه ان يفرح قبل موته بوصول مكاتيب من رومية ملأته آمالا . فانها وان لم تكن حاملة الاعتراف الفعلي بملاتيوس ، فان داماسيوس ارسل فيها للشرق تشجيعات قوية وارشادات واضحة يستنير بها . فباسيليوس اعرب للحال عن شكره بكلمات مملوءة احتراماً ومحبة تتيح لنا القول انهُ ، وان كان قبلًا تذمر بحدة لما ان اقواله لم تصادف اذناً واعية ، فما ذاك الّا لانهُ كان يضع اهمية كبرى في كل ما يصدر عن رومية .

(للبحث صلة)